

العمارة المدنية الراقدية

دلّت الصور على بعض الأختام الأسطوانية في الحضارة الراقدية، على أن المساكن الأولى للشعوب الراقدية كانت الأكواخ المبنية من القصب والمطلية بخليط من الطين والتبن، بسبب فقر بلاد الراقدين بالحجر. وكانت صناعة اللبن المجفف على الشمس ومن ثم القرميد المشوي، بداية لظهور أشكال متعددة من المباني ذات الغرف المستطيلة أو المربعة، المسقوفة بالأغصان والطين.

حالت طبيعة المواد المستخدمة في البناء، وهي اللبن والقرميد، دون بقاء المنشآت الراقدية بالشكل الذي يسمح بدراستها، لذلك اعتمد في بعض الأحيان على الاستنتاج المبني على المعطيات التي أبرزتها التنقيبات الأثرية، ولا سيما في مجال التسقيف والنوافذ والأبواب.

فقد أكدت التنقيبات الأثرية أن السمة الرئيسية للبيت الراقدي وجود فناء داخلي مكشوف تتوزع حوله الغرف بشكل متناظر غالبا، تفتح النوافذ على الفناء الداخلي، وتكاد تختفي الفتحات الخارجية، فيما عدا بعض النوافذ الضيقة التي تكون في القسم العلوي، حيث يستمد المسكن النور والهواء من الفناء الداخلي، وذلك تلبية لحاجة مناخية ودفاعية واجتماعية. تتميز الجدران الخارجية بالسماكة التي حرص عليها المعمار الراقدي لتأمين العزل الحراري، وإعطاء القوة والمتانة للأبينة بسبب عدم استخدام الأساسات والأحجار في البناء.

يتألف المسكن الراقدي بشكل عام من طابق واحد أو طابقين، ويشتمل على كافة العناصر الضرورية (غرف المعيشة والنوم –المطبخ –المستودعات). تتسم المساكن الراقدية بالتمائل والتلاصق، وتسمح مساقطها الأفقية بالإضافات المعمارية دون أن يؤثر ذلك على المخطط العام

للمسكن. تتجه زوايا البيت الرافدي إلى الجهات الأربعة الأصلية، مما يتيح تعرضه للنور والهواء بشكل مستمر.

تنوع تسقيف المساكن الرافدية حسب مساحة فراغاته، فقد استخدم في تسقيف القاعات الواسعة السقف المستوي، أو المائل باتجاه، حسب طبيعة المنطقة المناخية. ينفذ السقف المستوي بوضع عوارض الأخشاب بجانب بعضها البعض، بشكل متراس بحيث تستند على الجدارين الطويلين للغرفة. أما في الغرف العادية فقد استخدمت القبوات والعقود المبنية من القرميد المشوي واللين بالتسقيف.

أما بالنسبة للقصور الرافدية فقد شيدت بنفس طريقة البيت الرافدي، إلا أنها تختلف من حيث الاتساع وتعدد الفراغات الداخلية. يتألف القصر من عدة أقسام يؤدي كل منها وظيفة خاصة به، وهذه الأقسام مرتبطة مع بعضها بشكل عضوي يسمح بحرية الحركة بين أقسام القصر، دون حدوث أي تضاد في الحركتين الداخلية والخارجية. وذلك يجعل المداخل محورية مع الفناء المركزي للقصر.

تشتمل القصور الرافدية بشكل عام على ثلاثة أقسام رئيسية هي:

- 1- قسم الاستقبال: يشتمل على قاعة العرش والديوان العام، وأماكن الحاشية الملكية والأرشيف.
- 2- القسم الخاص: يضم إقامة الملك وأفراد عائلته مع بقية عناصر التخديم.
- 3- قسم الخدمات: ويشتمل على المستودعات والمطابخ وغرف القائمين على خدمة القصر.

تتميز القصور الرافدية بأنها محاطة بأسوار منيعة تدعمها أبراج دفاعية، ولها مداخل محصنة تؤدي إلى مداخل القصر ومنها إلى الفناء الداخلي. كما تميز القصور الرافدية بالترف الزخرفي، فخلو سطوح الجدران الخارجية من الفتحات، كونت مسطحات واسعة أتاحت للفنان الرافدي الفرصة كي يشغلها بمختلف أنواع الزخارف الحيوانية والنباتية، إضافة إلى المواضيع الدينية التي ترجمها الفنان الرافدي بلوحات تعبيرية عن هذه المواضيع.

اتسمت المباني الرافدية بكل أنواعها بسمة رئيسية من حيث الإنشاء، وهي عدم استخدام الأساسات في بناء الجدران، وإنما كانوا يعمدون إلى البناء على الأرض مباشرة بعد تسويتها بالقدر الكافي الذي يؤمن توازن المبنى، باستثناء المباني الهامة التي شيدت على مصطبة

اصطناعية، أو مدرج طبيعي يرفعها عن سوية الأرض لتلافي مياه الأمطار والفيضانات والرطوبة.

كشفت التنقيبات الأثرية عن العديد من القصور الملكية في بلاد الرافدين من أشهرها: قصر صارغون في خورسباد وقصر سنحاريب في نينوى، وقصر نبوخذ نصر في بابل وقصر حمورابي.

قصر صارغون:

يقع القصر في ضاحية خورسباد بالقرب من مدينة نينوى، ويعود للقرن الثامن قبل الميلاد. يقوم بناء القصر على مصطبة يبلغ ارتفاعها /14/ م وأبعادها /314-344/ م بمساحة تقدر بـ /10/ هكتارات، وتتجه زواياها إلى الجهات الأصلية الأربعة.

القصر مربع الشكل طول ضلعه /100/ م، له مدخل رئيسي يقع على حافة المصطبة ويصعد إليه بواسطة درج جانبي. ويوجد على جانبي المدخل برجان ضخمان وعدة أبراج مربعة أخرى تتوزع على جدار السور الذي يبلغ ارتفاعه /23/ م وسماكته كبيرة، وفي أعلى السور هناك شرافات على شكل مسننات يقف خلفها الرماة.

ويحف بالمدخل الرئيسي تماثيل مركبة من جسم حيواني ورأس إنسان لحمايته من الأرواح الشريرة وإعطائه مظهرا يعبر عن القوة، على غرار المداخل في العمارة السورية والمصرية. وكانت هذه التماثيل المركبة على الحواف السفلى لجدران القصر ويبلغ عددها /48/ تمثالا، وكانت جدران القصر مغطاة بلوحات من النقوش يبلغ طولها حوالي /2/ كيلو متر وتتضمن مواضيع شتى.

يتكون القصر من ثلاثة أقسام رئيسية مثل كل القصور الرافدية، ويضم عدة ساحات داخلية أكبرها التي يؤدي إليها المدخل الرئيسي، وتبلغ مساحتها حوالي /976/ متر مربع وهي بمثابة قاعة الاستقبال الكبرى في القصر، تحيط بها مجموعة من الغرف تفتح أبوابها القوسية على القاعة، بعض هذه الغرف كان مخصصا للضيوف وتسمى هيكل، جدرانها مكسوة بألواح من الحجر المنقوش التي يبلغ طول البلاطة الواحدة منها /3/ م وعرضها /2.5/ م وهي مغطاة بالنقوش الفنية الرائعة، التي تعبر عن مواضيع دينية وتاريخية، كما أن أرضية الغرف مغطاة بالقرميد المستور بالبسط والسجاد، وفي الأماكن التي لا يمكن تغطيتها بالسجاد زينت الأرضية بالنقوش التي تشبه نقوش السجاد.

وقد شكلت الأبراج المربعة حول القصر أسلوبا معماريا انتقل فيما بعد إلى العمارة الإسلامية في العصر الأموي على شكل مآذن مربعة، وإلى العمارة المسيحية في القرون الوسطى على شكل نواقيس للكنائس. كما تعتبر الفتحات الصحية القوسية الشكل، الموجودة في مصطبة القصر من أجل تصريف المياه، نموذجا معماريا متطورا في هذا المجال.

تخطيط المدن:

خضع تخطيط المدن في بلاد الرافدين، لعوامل وظروف فرضتها طبيعة الحروب التي كانت تعيشها شعوب بلاد الرافدين. إذ أن أسلوب تصميم المساكن والمعابد بجدران سميكة، وانغلاق إلى الداخل وخلوها من الفتحات والمنافذ المطلّة على الخارج، إضافة إلى أسلوب إنشاء الأسوار الضخمة ذات الأبراج الداعمة، قد حقق فيها المعمار الرافدي هدفه الأساسي ألا وهو تحقيق فكرة الحماية والدفاع عن المدينة.

ولعل تعدد الشعوب في منطقة بلاد الرافدين أدى إلى تعدد المدن المشيدة، في كل من شمالي وجنوبي ووسط بلاد الرافدين. وقد كان لكل مدينة من هذه المدن ظروف ومؤثرات أملت شكل تخطيطها. فالمدن السومرية في الجنوب مثل مدينة أور وأوروك كان تخطيطها يشتمل على شوارع ضيقة ومنحنية، تفتح عليها أبواب المنازل المتلاصقة والمتراصة. وتؤدي هذه الشوارع إلى مركز المدينة الذي تتجمع فيه المباني الهامة، لتوفير إمكانية الدفاع عنها وعدم تعرضها لهجوم العدو المباشر، كما أن المنازل التي تلتصق السور كانت تشكل نقاط دعم واستناد له، إضافة إلى الأبراج الدفاعية التي تدعم السور هي أيضا.

لم يستمر أسلوب تخطيط المدن السومرية الذي سائدا في الألف الثالثة قبل الميلاد طويلا، ولو أنه ترك تأثيرا بينا على تخطيط المدن الآشورية في الشمال، وظهر هناك تطور وتقدم ملحوظ في تخطيط المدن وخاصة مدينة بابل وغيرها من المدن في الألف الثانية والأولى قبل الميلاد.

تخطيط مدينة بابل:

ساد في تخطيط المدن البابلية استخدام التخطيط الذي يعتمد على شوارع واسعة متعامدة بزوايا قائمة، تنفرع عنها شوارع فرعية تؤدي إلى أقسام المدينة وتشكل كلها معا ما يشبه رقعة الشطرنج، بحيث يتشكل بين الشوارع الرئيسية والفرعية جزر ومساحات واسعة تستخدم للمباني والحدائق والساحات.

مثل تخطيط مدينة بابل تماما، مع ملاحظة أن معظم البيوت في مدينة بابل كانت تتألف من ثلاثة أو أربعة طوابق. كما دلت المكتشفات أنه كان لمدينة بابل سور يلتف حولها، وقد اتسم هذا السور بالارتفاع والعرض مع وجود عدد كبير من الأبراج الداعمة في كل جوانبه، وشكل السور مقرن قريب من المستطيل يقسمه في الوسط نهر الفرات الذي يقوم عليه جسر يصل بين قسمي المدينة، والجسر نفسه كان يتوسط شارع المدينة الرئيسي الذي تتعامد عليه شوارع فرعية عددها /25/ شارعا في كل جانب من الجانبين.

كان هناك قانون يحرم على السكان الخروج عن مخطط المدينة أو الإخلال بالخطوط العامة المحددة للشوارع، بحيث تبنى المنازل على خط واحد يحافظ على استقامة الشارع وتخطيطه وعلى تخطيط المدينة كلها. وكان لمدينة بابل مدخل رئيسي ضخم عرف باسم مدخل عشتار أو بوابة عشتار، المكونة من: مدخل ضخم يدعمه برجان شاهقا الارتفاع، وواجهة البوابة مكسوة بطبقة من القرميد اللامع، تغطيها مجموعة من الزخارف النباتية والحيوانية، المنفذة بقطع زخرفية ملونة بألوان مختلفة، مما يعطي للواجهة تماوجا ضوئيا أضاف إليها ملامس جمالية بديعة.

كما اشتهرت بابل في عهد الدولة الحديثة بحدائقها المعلقة التي تم إنشاؤها بواسطة مجموعة من العقود المتتالية، بحيث تضيف هذه العقود المتصلة مع بعضها بطبقة سميكة من التراب الصالح لزراعة شتى أنواع الزهور والرياحين، ويصعد إلى هذه الحدائق عن طريق درج منكسر، يتناسب انكساره مع الطبقات التي تتشكل منها الحدائق.

مما سبق يمكننا أن نستخلص بأن التخطيط الشطرنجي لم يكن من ابتكار الإغريق أو الرومان، بل هو ابتكار معماري قديم عرف في الشرق وانتقل عن طريق الإغريق إلى أوروبا.

د. عبير شدود